الروح والقوة

بقلم نقولا بردياييف
نقلها إلى العربية عمر الفرا

هل يؤمن الناس بقوة الروح ؟ يا له من سؤال محير ، وخاصة في ايامنا هذه التي تسودها شريعة القوة ! يجب علينا ان نعترف بالحقيقة : فالكثرة الغالبة من الناس ، ماديون . ليسوا ماديين في نظرياتهم فحسب ، بل في حياتهم ايضاً . إنهم لا يؤمنون بغير القوة المادية ، والعسكرية ، والاقتصادية ، بقوة السلاح وقوة المال . واولئك الذين يؤمنون اشد الايمان بقوة روحية ينظر اليهم الناس على انهم اغبياء ، ويسخرون منهم . وإن المرء ليخطىء إن حنق على الماركسيين لانكارهم حقيقة الروح الأصيلة وإقرارهم بأولوية المادة والاقتصاد كحقائق اولية . فليست الماركسية هي التي ابتدعت سلطان الاقتصاد على الحياة الانسانية ، إنها اكتشفتها في الحياة نفسها . وإنه لتعبير تقليدي خاطىء ان يضع الناس الروح مقابل القوة. فمن الخطأ إيجاد تقابل كهذا ، ومن الخطأ القول : « انتم في الحياة انصار اولوية المادة ، ونحن انصار اولوية الروح » . فمفهوم القوة متعدد الجوانب . علماء النفس يفسرونه بالجهد العضلي المصحوب بالارادة . وفلسفة إرادة القوة هي صورة من ميتافيزيك طبيعي . إنها قائمة على وجهة نظر خاطئة : هي استقلال المادة ، وخضوعها لقانونها الاوحد ، وفلسفة الحياة تعتبر القوة الحيوية معيار القيم الأسمى ، وتفرق بين الخير والشر بالحد الحيوي الأقصى . وهي ترى في الروح حادثة ملحقة بالحياة ، ترى في الاسمى حادثة ملحقة بالادنى . ولكن الذي يسترعي اهتمامي حالياً اكثر مما سواه ، هو ان تنقل الفكرة الطبيعية البيولوجية للقوة الى نطاق الحياة الاجتماعية . فنتيجة ذلك هي تمجيد القوة والرجل القوي ، وتبرير إيقاع الضغط على الضعفاء ، واعتبار القوة مصدراً وحيداً للحق والحقيقة . الرجل القوي هو وحده الذي يملك الحق لنفسه . وله مطلق الحق بإكراه الآخرين على إرادة القوة التي هي إرادته . لقد اتضح ذلك في عصرنا هذا كل الاتضاح . كان الايمان بهذه القوة الجائرة فيما مضى مقنّعاً ، كانت افعال دنيا تلبَس لباس الروح . ولطالما لجأت الكنيسة الى قوة الدولة ، ممارسة نفوذها بتأثير اسلحة مادية ، وهي التي تدرك انها بنيان روحي . وتعقد المشكلة ناشىء عن انه لا توجد فحسب قوة مادية ، بل قوة روحية ايضاً . كان المسيح يتكلم بسلطان ، اي انه كان يتكلم بقوة . تلك هي صورة من قوة اخرى غير التي يقدسها عالمنا . ألا نقول : قوة الروح ، قوة الايمان ، قوة التفكير ، قوة الحب ، قوة الابداع الفني ، قوة التضحية ، قوة الوثبة الخلاقة ؟ ونحن نتحدث عن قوة الحقيقة ، عن قوة الحرية ، عن قوة المعجزة التي تطيح بقوانين الطبيعة . الايمان قادر على ان يزحزح الجبال . هذه القوة ليست في متناول الدكتاتوريين الطغاة ! ذلك كله يبين ان المقابلة بين القوة والروح ، بين الحقيقة وبين القوة ، إنما هو امر تقليدي متعارف عليه .

وشريعة القوة في الحياة الاجتماعية متصلة اتصالاً وثيقاً بالاهمية التي تعلق خطأ على السياسة . ان مطالبها متزايدة وإنها لجماعية ابداً . القوة في الحياة الاجتماعية هي السلطة ، وهذه تملك اسلحة للضغط والاكراه رهيبة . تمجيد القوة هو تمجيد السلطة الجائرة الباغية . المقابلة الصحيحة هي المقابلة بين القوة وبين العنف . وعلاقات الانسان مع غيره هي التي تحدد معنى العنف . والقوة بالمعنى العصري المقيت هي عنف يقع على الآخرين . العنف موقف تجاه الانسان يعتبره شيئاً من الاشياء لا كائناً بشرياً . العنف الذي تحققه القوة قتال ، اما القوة الروحية فأمر يسمو متجلياً .

وتعقد قضية العنف ناشىء عن انه لا يوجد فحسب عنف ملموس بصورة مادية ، بل عنف غير ملموس ايضاً . الضغط الملموس ، الجسدي ، هو الذي يثير السخط على الاخص : يعذب رجالاً ، ويرمي بهم في غياهب السجون ، ويحرمون حرية الحركة ، وينكل بهم تنكيلاً وحشياً ، ويقتلون غيلة . إلا ان العنف غير الملموس ، العنف النفساني ، يلعب دوراً اخطر . سلاح الدكتاتوريين الطغاة هو « الديماغوجي » : الضغط النفسي على الجماهير ، التنويم بالجملة ، الرشوة والافساد ، الصحافة التي تجد نفسها في قبضة السلطة . إنهم لا يعتبرون الانسان كائناً حراً ، روحياً ، يجب مد يد المعونة له كي يصبح سيد نفسه ، وإنما يعتبرونه مخلوقاً قابلاً للترويض ، للقولبة . وعلى المجتمع الذي صبته الدولة في القالب الذي تريد ، ان يروض الفرد ، وأن يصبه في قالب يساير اهواءها عن طريق ضغط نفسي منظم مدروس . هذا الترويض يتم في ايامنا بمساعي الحزب الواحد الذي ينزع

الى الاستيلاء على السلطة والحكم . انه يؤدي الى انكار حقوق الانسان ، وحرية الضمير والتفكير . والاستقلال الروحي . الانسان الذي يزج به في السجن وينفذ به الاعدام ، هذا الانسان يستطيع ان يبقى ، ذهنياً ، باطنياً ، كائناً حراً مستقلا ، بالرغم من تعرضه لعنف مادي . الشهيد هو كائن حر ، اما الرجل الذي ارتضى الترويض وقولبة شخصيته عن طريق الضغط النفسي ، فأنه يصبح عبداً مسترقاً . العنف المادي لا يحتاج الى موافقة ابداً ومن الممكن ان يترك الحرية الباطنية سالمة . إذا حكم الطغيان عليّ بأن أُعدم رمياً بالرصاص ، فلن اضطر الى التخلي عن حرية تفكيري . ان الطاغية الذي يلقن شريعة القوة ليريد قبل كل شيء ان يوقع على الانفس ضغطاً مادياً ، وما العنف المادي سوى اداة هذا الضغط النفسي وسلاحه . هذا هو جوهر الجماعية المعاصرة . إنها تريد التسلط والاستيلاء على النفوس ، وترويضها . إنها تطلب من المرء ان يتنكر للحرية حتى تمنحه الخبز بمقابل هذا التنكر . هذه هي على وجه التدقيق محاولة «المحقق الاكبر» ، (الاخوة كرامازوف ـ دوستويفسكي) ، إحدى محاولات الشيطان التي حطمها المسيح . انهم ليقابلون القوة بالحق ، مع ان مقابلة كهذه لا تصح من الوجهة المنطقية . ربما كانت القوة امراً غير مشروع ، وربما كانت بغياً وعدوانا على حقوق الانسان ، ولكن الحق يستطيع ان يكون قوة . فعلام تقوم قوة الحق ، امام قوة اللامشروعية والعنف ؟ انها تقوم بكليتها على وجدان البشر ، على عقيدة الناس والشعوب ، على افضلية الضمير وتفوقه . إلا ان الدكتاتورية اللاشرعية التي تؤله القوة ، لا يمكن ان تعتمد الى قسوة القوة المادية فحسب . انها تفترض مسبقاً وجود ضمير لدى الناس ، وعقائد عند الشعوب . لقد اقترفت النازية مجازر دموية ، ولكنها استندت الى عقيدة ، وإلا لكانت مستحيلة . القوة الروحية تحتفظ بسموها على القوة المادية ، حتى في حالة التنكر لحقوق الفكر . قد يجعل الضمير من الحق قوة في بعض الحالات ، قوة ذات تأثير معنوي ، لا عنفاً نفسياً او مادياً . ان الحق يفترض مسبقاً تطبيق القوة كمؤيد ، ولكن لا يستطيع اي نظام حقوقي ان يعتمد في بقائه على استعمال القوة وحدها . ولمعتقدات الناس والشعوب المختلفة اكبر الاثر على بنيان المجتمع البشري وعلى علاقات القوة بالحقيقة ، والقوة بالحق . لا أقصد بالمعتقدات معتقدات المسيحية الوضعية فحسب ، بأية صورة ظهرت ، ولا معتقدات الاديان التاريخية الاخرى . فالنازية والشيوعية ايضا هما عقيدتان دينيتان بمعنى خاص وتفترضان بنياناً خاصا للضمير . بل ان الكفر الملحد هو عقيدة دينية بالمعنى السلبي . ومن الممكن ان تستحيل شريعة القوة الى شرعة دينية . بل ان امكانية التعبير عن القوة في الاتجاه الشرير ، اعني التعبير عن القوة التي تنكر اولوية الحقيقة والحق وحرية الانسان ، هذه الامكانية تمثل نزعة معينة في الضمير ، وانعدام العقائد الوضعية الايجابية ، ووجود اشباه عقائد . التعبير عن القوة الشريرة هو ابداً جور وطغيان على حرية الآخرين . غير ان الذين يجورون ويطغون لا يحرمون على انفسهم اية حرية . ان الدكتاتوريين يبيحون لأنفسهم ويبيحون لأتباعهم كل حرية . من ذلك يتضح ان الحب الحقيقي والاحترام الحقيقي للحرية يقتضي حب الآخرين واحترام حريتهم .

٢

ثمة علاقات للفكر بالقوة ، والقوة بالحرية ، وبالحق ، وهي علاقات معقدة جداً .

فما هي علاقة القوة بالقيمة ؟ يمكن للقيمة ان تكون قوة ولكن هل تكون القوة قيمة في ذاتها ، كما تؤكد نظرية القوة ؟ لا يمكن ان تعتبر القوة ولا يجوز ان تعتبر قيمة . فقيمة القوة هي قيمة وسيلة مرتبطة بهدف ما . والأمر يتوقف على معرفة القوة التي يتحدثون عنها . فعندما نتحدث عن قوة الله مثلاً ، أو عن قوة الخير أو الحقيقة أو قوة الأفكار السامية ، فالقوة حينئذ لا تشكل قيمة في ذاتها . بل إن تمجيد القوة يعني على العكس اعترافاً بها كفكرة وقيمة ساميتين . وعندئذ ينشأ مذهب طبيعي يؤدي الى الوثنية . إن قوة الحياة ليست قيمة بحد ذاتها : إن صفة هذه القوة هي التي تشكل قيمة . يؤكد نيتشه ان إرادة القوة تبدع كل قيمة وتمثل أسمى معيار للحقيقة ، ولكنه في الوقت ذاته يدافع عن الميزة ويظهر كفيلسوف ارستقراطي . وفي هذا يكمن تناقضه الاساسي ، لان قوة إراده القوة لا تشكل بحد ذاتها ميزة : إنها تستطيع تدمير كل مزية في العالم . ويمكن القول إن إرادة القوة هي إرادة رعاعية . المزية النوعية هي أسمى من القوة بكثير ، والقوة النوعية وحدها هي التي تشكل قيمة .

ولكن الأغرب هو وجود نزاع مفجع بين القوة وبين القيمة ، نزاع يجعل كل فلسفة تفاؤلية للقوة فلسفة غير مقبولة : فالقيم الرفيعة في عالمنا التجريبي تحتل مكاناً تحت القيم الدنيا ،

والقيم الروحية هي أضعف من القيم المادية ، فالنبي والفيلسوف والشاعر هم أضعف من الشرطي ، أضعف من العسكري أو المصرفي . الله أضعف من المادة . و « ن . هارتمان » يتحدث عن ذلك موفقاً ، مع أنه لم يبرز فلسفته التبرير الكافي . قوة المال في هذه الدنيا أعظم ، بشكل لا يقاس ، من قوة الروح التي يسخرون منها . إننا نعيش في عالم صلبت فيه أسمى الحقائق . لقد مات المسيح على الصليب . لقد رجم الانبياء فكانت الحجارة أقوى من النبي المرسل . سقراط سممه شعبه ، فكان السم أقوى من الحكيم . كم من قديسين ، كم من عباقرة عذبوا واضطهدوا ! العالم بصورة عامة لم يرحب بالمزية النوعية . لقد انتصرت القوة الدنيا . ما ندعوه « شريعة القوة » هو اخيراً شريعة القوة الشريرة ، الدنيئة ، المادية ، المجردة عن الميزة . المادي مجرد عن المزية . والروحي وحده هو ذو المزية . الروح هي التي تشع مزية المادة . وشريعة القوة تمثل عدم الايمان بقوة الروح والحرية . ومن البديهي ان المرء لا يستطيع ان يقابل بين شريعة القوة ، وحماية العجز والضعف . فالنبي المرجوم ، والقديس المعذب ، والعبقري المضطهد ، هؤلاء ليسوا ضعفاء ، إنهم اقوياء . ولكنها قوة نوعية صالحة مختلفة كل الاختلاف . بمقابل شريعة القوة تقوم قوة الروح وقوة الحرية . وهي في الحياة الاجتماعية قوة الحق والعدل ، وهي وحدها الباقية . إنها قبل كل شيء تعارض اتجاهات متعددة من الضمير . فمقابل الوجدان المستعبَد والمستعبِد يقوم الوجدان المتحرر والمحرِّر . لقد تلبس الناس شيطان إرادة القوة وهو يجرهم الى حتفهم . ولكن مبدأ آخر يستطيع ان يبعد الهلع عن هذا العالم الذي اخذه المسّ والذي كل ما فيه عنف : إنه مبدأ الروح ، مبدأ الحرية ، مبدأ الانسانية ، مبدأ المحبة . الدين في اصوله يقف في وجه شريعة القوة . فالله لا يرغم احداً . إنه ليفسح الحرية لانكاره . إنه لا يريد إلا جواباً حراً ، ومشاركة حرة في عمله . الروح لا يجور على احد ، وفي ذلك يكمن جوهره . إنه لا يستطيع إلا ان يتجلى متسامياً . وان على الدين ان يشكل قوة غير قوة هذا العالم . لقد نطق المسيح بأقوال مبهمة بالنسبة للعالم : الأولون (أي الأقوياء بعرف الدنيا) سيصبحون الآخرين ! إذن فالضعفاء في نظر الدنيا سيكونون الأولين . هذا هو انقلاب للقيم لا معنى للقوة بعده . الذي يسيطر على هذا العالم ويحكمه إنما هو الأسوأ وليس الأفضل . فكرة شريعة القوة هي رعاعية وليست ارستقراطية ، إنها فكرة محدثي النعمة الانتهازيين ، فكرة النفعيين الوصوليين . لقد تحققت بواسطة طرق تذكرنا بتربية البهائم .

لقد أقامت الفلسفة الألمانية أسس شريعة القوة بأشخاص فئة من عظماء فلاسفتها . ولا شك ان أقلهم مسؤولية هو « كانت » . ففلسفته هي فلسفة الحرية ، بالرغم من انها لم تصل الى آخر مداها . ولم تؤد نتيجتها تأدية كافية . وإننا لنجد فلسفة القوة الألمانية عند « فيخته » ، ولكن بدرجة أضأل مما هي عند « هيجل » الذي هو احد كبار المسؤولين ، ثقافياً ، عن اشاعة القوة في المانيا المعاصرة . إن ثنائية « كانت » في نظام الطبيعة ونظام الحرية ، في عالم الأشياء وعالم المثل ، هذه الثنائية العميقة ذات المغزى البعيد الخالد ، قد حلت محلها وحدانية تفاؤلية خاطئة . فالروح عند هيجل يتجسد في القوة التاريخية وفي قوة الدولة ، والحرية هي نتيجة الضرورة . انها ضرورة اصبحت واعية . ذلك يصل بنا الى شريعة القوة التاريخية المعاصرة ، الى تأليه المنتصرين الغالبين ! ويل للمغلوبين ! الروح عند الغالبين يبشط في القوة المنتصرة . الواقعي منطقي معقول . التعبير عن القوة يبرره العقل . منطق الشمول الذي ينفي الثنائية التي ترتبط بها الحرية ، يقود إلى الضرورة التاريخية ، إلى شريعة ما هو كائن ، اي إلى ما يعبر عن القوة . ويتوارى سلطان العنصر الاخلاقي المعنوي ، وتتحدد الحرية بالواقع . وذلك يعني : لن تكون ثمة حرية . ولقد كانت نتائج ذلك حتمية في الماركسية التي تؤدي ايضاً إلى تمجيد القوة . لقد انطوى الروح في المادة ، وفي التطور العام . إنه في الوقت نفسه مذهب تطوري وقائم على الميتافيزيك . وهكذا فإن التاريخ ليس صراع الحرية ضد الضرورة ، وكفاح الروح ضد انسياق تاريخي وطبيعي ، وإنما هو انتشار الروح .

لقد أمكن تحويل فلسفة هيجل إلى مذهب مادي بسهولة ، في حين أن ذلك لم يمكن بالنسبة لفلسفة كانت . كان تفكير هيجل القوي في بعض مظاهره شؤماً على تاريخ التفكير البشري . فقد كان في التفكير الجرماني ديالكتيك عبقري ابتدأ بكانت الذي يُظن ان من السهل تخطيه وبعد ان مر بفيخته وهيجل ، بفيورباخ وماركس شتاينر ، انتهى إلى ماركس من جهة ، والى نيتشه من جهة اخرى . غير ان مصير نيتشه بعد موته ، ظهر ، كما يحدث غالباً ، مفجعاً اكثر من حياته . ولقد استُخدم تفكيره من اجل الشر . لقد شُوِّه تفكيره الأرستقراطي لتبرير الغرائز والمنافع الخسيسة وايصالها إلى الظفر . لقد شُوهت خلال سير

حوادث التاريخ الكثيرة ، جميع الأفكار العظيمة إلى حد تغيير معالمها . حتى تعاليم المسيح فإنها قد شوهت ومسخت .

إن فكرة إرادة القوة نفسها ، باعتبارها تفسيراً لحياة العالم ، هي ثمرة العدمية واليأس ، والنتيجة الحتمية لامانة الله . إرادة القوة ، إنها إرادة القتل . كل رجل يطمح إلى مركز قوي هو قاتل ويجب ان يدان كقاتل . إنه لا يمكن تحقيق إرادة القوة إلا بالقتل .

٣

مقابل فلسفة القوة التي تسود ألمانيا توجد في الروسيا فلسفة ليون تولستوي في مقاومة الشر السلبية . وإن الناس يسيئون ، كالعادة ، فهم هذه الفكرة التولستوية عن المقاومة السلبية ، او انهم لا يفهمونها فهماً كافياً . وليس ثمة ما هو أسهل من تفنيد دعوة المقاومة السلبية . فمن الواضح لكل ذي عين ان المرء إذا لم يقاوم الشر ، فسيتغلب الشر والاشرار إلى الابد . ولا معنى لهذه الدعوة إن ارتضى الناس أثر هذه القوة واعتبروه معدوماً . كان ليون تولستوي في الواقع يرى ان مقاومة الشر بالقوة لا بد وان تهدم عمل الطبيعة الالهية ، وتمنع حلول الله في قدر الانسان . ومن الجائز انه لم يوضح ذلك توضيحاً كافياً ، ولكنه كان يعتقد اعتقاداً أكيداً بان الله ، بعدم اللجوء الى القوة ، يتدخل بذاته ويشكل قوة فاعلة . كان يفهم الله على طريقته الخاصة كطبيعة إلهية . وغاندي يفكر التفكير نفسه . وسواء أكان الله موجوداً ام لم يكن ، فلا شيء يتبدل في نظام الحياة البشرية ! فهذا النظام هو دائرة مستقلة ، لا علاقة لله إلا بالدائرة الاخرى ، تلك التي تقوم في الجانب الآخر من الامور البشرية جميعها . وعلى ذلك فتولستوي يرى ان كل شيء يتبدل إذا كان الله موجوداً .

ومهما يكن الامر فان ليون تولستوي قد طرح مشكلة عظيمة الاهمية ، إنها تنطوي على حقيقة جريئة ، ولكنها غير عقلانية بالكلية ، في حين انه يعتقد بعقلانيتها . إذا كان الله غير موجود ، ولا وجود لاثره ، فكل شيء هالك . إن الله يدعونا الى الخروج من الدائرة الفاسدة التي يرتكب الشر فيها مكافح الشر . إنني أبسط المشكلة بطريقة أخرى : الله لا يعمل إلا في الحرية وعن طريق الحرية . ولا يعمل في الضرورة وعن طريق الضرورة . الله حرية أكيدة . لقد كان في فلسفة تولستوي الدينية وحدانية خاطئة ، لذلك فهي لم تمس قضايا الحرية ولا قضايا الفرد . وقد توصل الى مذهب السلام عن طريق الحب الاخوي . وتركز خطؤه في عدم اهتمامه بحماية الضعيف ضد جور القوي وطغيانه إطلاقاً . وهو محق في قوله إن الشر لا يُغلب بالعنف ، ولا يمكن استئصال جذور الشر بالعنف . الظفر على الشر لا يمكن ان يكون إلا روحياً . غير ان من الممكن تحديد فعل الشر بواسطة القوة ، ومنع العنف والجور على الناس العزل ، ومن الممكن منع القتل والتعذيب واللصوصية . بهذا ارتبطت تقاليد الفروسية التي يغمط العالم اليوم قدرها . فهنالك فارق بين استعمال القوة للدفاع عن الحرية وبين استعمالها بالعكس للقضاء على الحرية . لا يبرر اللجوء الى القوة غير حماية الضعفاء ، والمحافظة على الحرية والقيم الروحية ، والقضاء على العنف والطغيان . يجب حماية الانسان وكرامة الحياة الانسانية من غزو الهون والمغوليين ، من آتيلا ، من إرادة السيطرة من قبل شخص واحد . إرادة القوة تؤدي حتماً الى إنكار الفروسية والشرف . لقد تحدث الطغاة عن الشرف بدون طائل ، وأنكروا أبسط مفاهيم الشرف العسكري الاولية . والفروسية في الواقع قد تنمسخ الى عصابية لصوصية ونهب ، لان كل شيء ينمسخ في هذه الدنيا ، ولكن الفروسية لم تكن ، نظرياً ، تعبيراً عن إرادة القوة : إنها تعني الدفاع عن الضعيف ، كانت تعبيراً عن عقيدة ربما لم تكن مجدية ولكنها تتطلب تضحيات . كانت الفروسية منبع المفاهيم الحربية للشرف في المجتمع الاوربي . كانت الحرب الفروسية حرب مبارزة ومصارعة . وإرادة القوة تجعل من الحرب نقيض المبارزة . إنها لا ترعى تقاليد الفروسية ، ولكنها ترعى تقاليد المكيافيلية . وليس عندها مفهوم للشرف يحدد استخدام العنف . القوة المجردة تحسر القناع عن وجهها ، عما هو مناقض للروح ، ذلك هو التعبير عن الشيطانية . إرادة القوة ، تقديس القوة ، إنها ينكران الرحمة والعطف . الرحمة تحدد إرادة القوة . إنها روح . ومن الجلي ان العالم وسط معالم الدكتاتورية ، سيخرج من التاريخ الانساني المحض ويدخل في عهد من تاريخ الابالسة . وستقدس فيه القوة بصورة آلية . إن زوال السلطة والقوة لا يمكن ان يحصل إلا في تغيير العالم . فالدولة تحافظ على مهمتها الوظيفية ، ولكنه من الضروري التأكيد على ان الدولة هي خادم الانسان لا قيمة من نوع أسمى .

الحديد

لمن المدافع والرصاصُ ؟
وبأي قلب في غدٍ ،
ستغوص اطرافُ الحرابِ !
فئة مهرأة الضميرِ
محشوة الاحشاء بالخبث اللئيمِ
جثث تعوم على الصديدِ ، بلا عيونِ
يشدها هدف حقيرُ
ليلف ارجلها حريرُ
فتحس بالخطر العظيمِ
خطر انفجار الثائرين على القيودِ
فتروح تقترض اللظى ،

من كل جبار عنيدِ
خلف البحارِ لتستفيد من الحديدِ
من كل اصناف الحديدِ
لخنق اصوات الشعوب ، ودفعها نحو الجحيمِ
لمن السلاحُ ؟ لمن دهاليز السجونِ ؟

فئة مدنسة الشعورِ
تحيا على ثمر الغرورِ
فتود لو تبني القصورَ ، على الجماجم والنحورِ
لكنها ابداً تنام على ضرام
ابداً تنام وتستفيق على دويّ الغاضبين
فيلزها لون من الخوف الشديد
خوف الطغاة من العبيدِ
فتروح تبحث من جديد
عن الحديد
عن كل انواع الحديدِ ...

بغداد — **حسين مردان**

— ٤ —

تبين مأساة هذه الحياة وآلامها التي لا تحصى ، ثنائية الروح والعالم ، ثنائية الحرية والعبودية . والتغلب على هذه الثنائية ليس يسيراً . ولا قيمة للتغلب عليها في مجال التفكير النظري . فالانسان كائن مدعو إلى الاتصال بقرابته ، إنه يحقق ذاتـه في المجتمع . ولكن اهداف الحيـــاة الانسانية هي روحية : إنها الحياة الروحية والثقافة الروحية . والتخلي عن هذه الاهداف يعني النزاع والصراع . فسيادة السلطة في هذا العـالم لا توصل إلى الروح ، إلى الحقيقة ، إلى الحرية .

« أمير » هذا العـالم هو وجه مخيف ، معاذ الله ، إن ذلك ليتضح يوماً بعد يوم . كل مذهب وحداني في هذا العـالم هو مذهب باطل . وباطلة هي تفاؤلية القوة . إن القوة التي يقدسونها والتي هي نقيض الروح فعلاً ، هذه القوة تبيح الدم وتؤدي إلى سفك الدماء . الدم يسكر الرجل الذي يغدو خاضعاً لظمأ الدم المتزايد . « الدم عصارة من نوع خاص » ، هكذا قال مفيستو فاليس في فاوست . إنه ليس سائلاً عادياً ، إنـه مرتبط بسر الحياة والموت . لقد كانت الأديان الوثنية القديمة مرتبطة بسفك الدماء والشبق الجنسي . تلك كانت عقيدة ديونيسيوس . وقد حدثت اليوم رجعة إلى الشرائع الوثنية القديمة ، ولكنها تجهزت بتسلح الحضارة الفني الرهيب . هـــذه هي الشيطانية الحقيقية . والرهيب أكثر من ذلك ان تستهوى الشبيبـة بتقديس القوة وإباحة سفك الدماء . لقد بشر نيتشه بإرادة القوة ، في حين انه ظل مثالياً غير نفعي ، رجلاً صافياً صفاء البلور . وأمكن ان نقرأ في وجه هتلر المحير ، ان احلال إرادة السلالة الجرمانية محل الله قد انتج ثمرات اخرى . فليس ارستقراطيو الفكر هم الذين التفوا حول هتلر ، كما كان يتمنى نيتشه ، وإنما الأشرار ، الرعاع ، الانتهازيون الوصوليون ، الناس الذين يتميزون حقداً ، الذين يتنسمون الكراهية والانتقام . فشريعة القوة ، وسفك الدماء وإباحة العنف الذي يوصل إلى النجاح ، إنها لتجتذب الأشرار ، وغالباً السفاكين . وذلك يعني عدم الايمان دائماً بقوة الحقيقة ، بقوة الروح . قوة الروح هي وحدها القوة التي ليست وهمية والتي ستظفر في النهاية . اندحار الروح أمر باطل . الجماعة يمكن ان ينقذها بضعة عادلين . واعمال الخير التي تعتريها هزيمة ظاهرية هي وحدها التي تدعم العـالم وتنقذه . اما جميع الممالك القوية التي كانت دعامة « امير » هذا العالم ، فإنهـا لم تكن خالدة ابدية وانما انهارت . لقد كان اسكندر المقدوني ، ويوليوس قيصر ونابليون ، شأنهـــم شأن أتيلا وجنكيز خان وتيمورلنك ، « خائبـــين فاشلين » بالمعنى الصحيح . وسيكون هتـــلر كذلك [1] .

إن نزاع القيم والقوة لا يتقرر على المستوى الكوني للشر الظافر . ليست الكلمة الاخيرة للسفاح . الانسان مدعو إلى الاحياء لا إلى القتل . ووراء المحي المجدد توجد قوة خارقة .

دمشق — ترجمها : **عمر الفرا**

(١) كتبت هذا عام ١٩٣٩ (ملاحظة للكاتب) .